مَرْجِعِيَّةُ أَهْلِ البَيْتِ فِي التَّعامُلِ مَعَ القُرْآنِ

(الإمامُ الحَسَنُ عليه السلام أَنْمُوذَجاً)

ساجد صباح ميس العسكري

العراق –ذي قار

فحوى البحث

يجري البحث في سياق تراث الامام الحسن السبط عليه السلام القرآني والذي يرى الباحث انه غيب طويلاً، ولم تكتب فيه الاقلام كثيراً. ومع قلة ماورد عنه عليه السلام في هذا المجال من روايات، فهي لا تزيد على عشرين رواية (بحذف المكررة منها).

وقد قسم البحث على مبحثين، جاء الاول عن مرجعية الامام الحسن عليه السلام في التعامل مع القرآن الكريم و حقائقه الغيبية.

وجاء الثاني ليبين دوره عليه السلام في التأسيس لفهم القرآن الكريم وبيان بعض القواعد التي اسسها نظرياً او عملياً.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين. وبعد...

لقد أولى المسلمون إهتماماً وعنايةً خاصة بالقرآن الكريم وتفسيره منذ بداية نزول آياته ولاشك في أن بحوث علوم القرآن تمتد الى عصر رسول الله ﷺ ولا يخفى على كل باحث علاقة أهل البيت عليهم السلام بالقرآن الكريم فهم عِدْل القرآن بدلالة حديث الثقلين، وللأئمة المعصومين جهود كبيرة في مجال علوم القرآن، وكان لهم الريادة في هذا العلم فقد ذكر السيد محسن الأمين في كتابه (أعيان الشيعة: ١/ ٩٠) نقلاً عن عقدة الكوفي: أن الإمام علي عليه السلام عنده ستون نوعاً من أنواع علوم القرآن ثم جاء بعده الإمام الحسن عليه السلام فكان له عليه السلام دورٌ كبيرٌ في مواصلة الحفاظ على علوم الشريعة امتداداً لدور أمير المؤمنين علي عليه السلام بالرغم من منع التدوين.

المبحث الأول:

مرجعية الإمام الحسن عليه السلام في التعامل مع القرآن

القرآن الكريم كالوجود بشكل عام له مراتب وجودية متعددة والذي بين أيدينا هو مجموعة الألفاظ (الوجود الكتبي واللفظي) وحقائق القرآن غير منحصرة بهذا الوجود فإن وراء الألفاظ معاني ووراء المعاني حقائق ووراء الحقائق حقائق أخرى إلى أن تصل إلى مراتبها العليا عند الله متجاوزة لمجموعة من العوالم كعالم الملك[١] والملكوت[٢] والجبروت[٣] وعالم اللاهوت[٤] إلى غيرها من العوالم الغيبية التي أحاط بها مَنْ أحاط بكل شيء.

ومع أن القرآن الكريم له مستويات وتجليات في كل عالم تتناسب معه إلا

(١) عالم الملك: هو الكرسي أعني الأجسام والجسمانيات وهو من عوالم الغيب (الفردوس الأعلى، محمد حسين كاشف الغطاء: ٤٩).

(٢) عالم الملكوت: هو عالم الذر الثالث وهو علم النفوس الكلي.

(٣) عالم الجبروت: هو عالم الذر الثاني و عالم العقول النورية.

(٤) عالم اللاهوت: هو عالم الذر الأول ومرتبة الأسماء والصفات الملزمة للأعيان الثابتة. (الهامش ٤، ٣، ٢ ينظر: شرح الأسماء للملا هادي السبزواري: ٦١).

أن له حقيقة وجودية واحدة[٥] ولقد أشار القرآن الكريم بصورة إجمالية إلى وجود مراتب له ففي مرتبة يكون بلسان عربي مبين وفي مرتبة، علي حكيم قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الزخرف: ٣].

ففي هذه الآية يشير إلى المراتب الوجودية التي بين أيدينا وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [سورة الزخرف: ٤].

ففي هذه الآية يشير تعالى إلى المراتب العالية للقرآن الكريم فيصفه بالعلي الحكيم.

وقال تعالى ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ [سورة هود: ١].

فالإحكام في المراتب الوجودية العالية والتفصيل في هذه المرتبة (مرتبة الوجود اللفظي والكتبي) ففصلت آياته وجاء بلسانٍ عربيٍّ مبين لتدركه وتفهمه عقول البشر أما في تلك المراتب فهو عليٌّ وحكيمٌ عن أن تدركه العقول، ولَما تنّزل القرآن الكريم من عالم الغيب إلى عالم الشهادة احتجب بحجب كثيرة يقول (مُلاّ صدرا) أنه احتجب بألف حجاب حتى وصل إلينا[٦] وسبب وجود تلك الحجب، اختلاف العوالم التي نزل بها القرآن الكريم، لذا قال الرسول ﷺ: (إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم)[٧] لذا فإن الوصول إلى أعلى مراتب القرآن الكريم لا تتم ولا يمكن الإحاطة به إلا لمن كان له ارتباط وجودي مع القرآن الكريم فكان مساره في نزوله مساراً متزامناً مع القرآن الكريم في كل مرتبة من مراتبه الوجودية فأحاط بالقرآن ما لم يحط به غيره، وهذا ما يشير إليه قول النبي ﷺ في حديث الثقلين (لن يفترقا)[٨] فهو يشير إلى إرتباطهما في

(٥) بتوضيح أكثر: الضوء له حقيقة واحدة ولكن له مستويات مختلفة فضوء الشمس يختلف عن ضوء المصباح.

(٦) مفاتيح الغيب صدر الدين الشيرازي: ٢٢.

(٧) الكافي للكليني: ١/ ١٢.

(٨) حديث الثقلين من الأحاديث المتواترة والتي نقلتها كتب الفريقين، ينظر: حديث الثقلين للسيد علي الحسيني الميلاني: ٢٠.

العالم المادي وفي تلك العوالم الغيبية الأخرى لذا قال الإمام علي عليه السلام أنا النقطة تحت الباء، عندما تحدَّث عن كون كل ما في الكتب في القرآن وكل ما في القرآن في الفاتحة وكل ما في الفاتحة في البسملة وكل ما في البسملة في الباء[٩] لأن الكلام الإلهي فيه من التكثيف[١٠] ما يتجاوز مستوى إدراكنا فالمعصوم الذي نفترض فيه العصمة التامة إنما بلغ ما بلغ، لكرامته عند الله ووصلوا إلى مرتبة عِدْل القرآن الكريم وعلموا بكل مراتبه ولم ينفكوا عنه في مرتبة من مراتبه الوجودية، ونحن عندما نلتجئ إليهم لإخبارهم إيانا بحقيقة القرآن وإحاطتهم التامة به، وهم يريدون أن يوجدوا فينا هذا التعامل مع القرآن فلا نتعامل معه على أنه ألفاظ ومعانٍ وإنما وراء تلك الألفاظ حقائق وإلا لما افترض أن لا يمسه إلا المطهرون وهذا المس يأخذ مجاله المادي والمعنوي، فعندما نتحدث عن الآثار التكوينية لبعض الآيات القرآنية فبعضها شفاء وبعضها يدفع الضرر... الخ، فهذه الآثار ليست عجيبة لأنها تعود إلى حقيقة القرآن الذي مر بعوالم متعددة حتى وصل إلينا، ولكون هذه الآيات نبعت من جانبها الغيبي، امتلأت وجوداً حتى أصبح هذا المقدار من الآية كافياً وشافياً ونافعاً... الخ، وهذا يعطينا معنى تقديس القرآن فهو ليس ألفاظاً كأي ألفاظ أخرى لذا لا يجوز لغير الطاهر مس القرآن[١١] ولا يجوز تصغير لفظ القرآن ففي الرواية عن الإمام علي عليه السلام قال: (لاتقولوا رمضان.. ولايسمى المصحف مصيحف)[١٢] ويجب توقير القرآن و تعظيمه[١٣].

ومن خلال ما ورد عن الإمام الحسن عليه السلام من روايات سنذكر مجموعة

(٩) ينابيع المودة: ١/ ١٩٠.

(١٠) التكثيف: هو تراكم الشيء بعضه فوق بعض. (ينظر تحليل الخطاب الشعري لمحمد العمري: ٦٤).

(١١) أجماع المذاهب الفقهية على عدم جواز مس المصحف إلا بطهور (ينظر: الفقه على المذاهب الخمسة، محمد جواد مغنية: ٣٧.

(١٢) مسند الإمام علي عليه السلام: ١/ ٢٦٥.

(١٣) لإنه كلام الله سبحانه ولان له حقيقة وجودية عالية.

من النقاط التي تكشف الجانب الغيبي للقرآن الكريم، وتبين حقيقته وعظمته وأهمية العمل به وفي الوقت نفسه تبين علاقة أهل البيت بالقرآن فإن هذه الحقائق لا يخبر عنها إلا عِدْل القرآن.

أولاً: بيان عظمة القرآن الكريم:

أشار القرآن الكريم في مناسبات كثيرة إلى بيان عظمته وأهمية العمل به والآثار المترتبة على ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ..﴾ [سورة الرعد: ٣١] وقد وردت روايات كثيرة عن المعصومين في هذا الجانب ومما ورد عن الأمام الحسن بن علي المجتبى عليه السلام في بيان عظمة القرآن وأهمية العمل به ما رواه الديلمي، قال الحسن عليه السلام: (ما بقي في الدنيا بقية غير هذا القرآن فاتخذوه إماماً يدلكم على هداكم وإن أحق الناس بالقرآن مَنْ عمل به وإن لم يحفظه، وأبعدهم منه من لم يعمل به وإن كان يقرؤه)[١٤]، فالإمام عليه السلام يشير إلى سبيل الهداية من خلال العمل بالقرآن الكريم لا من خلال حفظه وقراءته وإن كان لها ثوابٌ كبيرٌ ولكن الهداية تكمن في اتخاذه إماماً وَقيِّماً على أعمالنا وسلوكياتنا فنصحح المسار من خلال العرض على القرآن الكريم، وما رواه المجلسي عن الدعوات للراوندي: قال: قال الحسن بن علي عليه السلام من قرأ القرآن كانت له دعوة مجابه إما معجلة وإما مؤجله[١٥]، في هذه الرواية يبين الأمام عليه السلام أثراً من آثار قراءة القرآن هو استجابة الدعاء فالإمام يَعِدُ قارئ القرآن باستجابة دعائه إما معجلاً أو مؤجلاً، فمن يستطيع أن يكشف هذه الآثار لولا المعصوم عليه السلام فهو يخبر عن حقيقة واقعية مترتبة على قراءة القرآن ويكشف عن أثر من آثارها.

ثانياً: الإستشفاء بالقرآن الكريم:

وصف القرآن الكريم نفسه بأنه ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة يونس: ٥٧]، ويمكن أن يفهم منها الشفاء المعنوي والمادي[١٦] من خلال ما كشف

(١٤) أرشاد القلوب للديلمي: ٧٩.

(١٥) بحار الأنوار للمجلسي: ٩٢/ ٢٠٤.

(١٦) كتب في ذلك كتب عديدة منها:=

عنه المعصومون من آثار لبعض السور في شفاء بعض الأمراض وقد ذكرت في كتب الحديث روايات كثيرة منها:

عن الرسول ﷺ: (من لم يشفه الحمد فلا شفاء له)[١٧] وعن الصادق عليه السلام عن الرسول ﷺ (إذا أصابته عين أو صداع بسط يديه فقرأ فاتحة الكتاب والمعوذتين ثم يمسح بها فيذهب عنه ما كان فيه[١٨]، ومما جاء عن الإمام الحسن عليه السلام في الإستشفاء بالقرآن ما رواه الطبرسي عنه انه قال: أكتب على ورقة يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم وعلقه على المحموم وإذا أخذته الحمى يكتب في قرطاس هذه الآية ويشد على عضده، ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[١٩] [سورة يونس: ٥٩] فالإمام الحسن عليه السلام يكشف لنا علاج الحمى من خلال الإستشفاء ببعض آيات القرآن الكريم.

ثالثاً: الحفظ ودفع الضرر من خلال القرآن الكريم:

ورد في روايات المعصومين الكثير من الأعمال التي تحفظ الإنسان وتدفع عنه الضر[٢٠]، فيدفع الله عنه بالقرآن الحسد، والسرقة، والسباع، والسحر... الخ، فقد جاء عن الرسول ﷺ: (يا علي من خاف من السباع فليقرأ، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾[٢١] [سورة التوبة: ١٢٨]، ولدفع السحر والشياطين، ورد عن الرسول ﷺ أنه قال، (يا علي من خاف ساحراً أو شيطاناً فليقرأ، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[٢٢] [سورة الأعراف: ٥٤]، ولدفع السارق فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: (يا علي أمان لأمتي من السارق: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾[٢٣] [سورة الإسراء: ١١٠].

=الأستشفاء بالثقلين، باسم الأنصاري، والأستشفاء بالقرآن، حيدر الموسوي (ينظر مجلة المصباح، العدد١٦: ٣٧٨).

(١٧) بحار الأنوار للمجلسي: ٦٢/ ٧٤.

(١٨) المصدر السابق: ٩٢/ ٣٦٤.

(١٩) مكارم الأخلاق: ٤٢٩.

(٢٠) ينظر الآثار الوضعية من الكتاب والسنة: ٧٩، ١١٠، ١٢٨، ٣٤٣، ٣٨١.

(٢١) من لايحضره الفقيه للصدوق: ٤/ ٩٦٨.

(٢٢) المصدر السابق.

(٢٣) المصدر السابق.

ومما جاء عن الأمام الحسن عليه السلام في دفع الضرر ما رواه أبو نعيم بسنده عن الحجاج بن فراضه عن الحسن بن علي عليه السلام قال: أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين آية إذا أصبح وإذا أمسى أن لا يمسه لصٌ عادٍ، ولا سبع ضارٍ، ولا سلطان ظالم، ولا ماء غالب، وهي آية الكرسي، وثلاث آيات من الأعراف، إن ربكم الله الذي خلق... (الصافات)، وثلاث آيات من آخر الحشر، هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة إلى آخرها، وثلاث آيات يا معشر الجن إلى قوله أنس ولا جان فبأي آلاء ربكما تكذبان)[٢٤].

وفي رواية البغدادي (أنا ضامن لمن قرأ بهذه العشرين آية في كل ليلة أن يعافيه الله من كل شيطان مارد ومن كل شيطان حاسد ومن كل لص عادٍ ومن كل سبع ضارٍ وهي، (آية الكرسي وثلاث آيات من آخر الحشر... الخ)[٢٥].

فالإمام الحسن عليه السلام في هذه الرواية يتعهد بأنه ضامن وهذا يدل على إخبار بحقيقة واقعية ويدل على دور أهل البيت في الكشف عن الجانب الغيبي للقرآن لأنهم سايروا القرآن في كل مراتبه، فمن خلال قراءة مجموعة آيات يدفع الله بها الحسد، واللص، والشيطان، والسبع الضاري، والسلطان الظالم، والماء الغالب[٢٦]، فلو كان الأمام لم يصل إلى مرحلة الكشف عن الجوانب الغيبية لآثار قراءة هذه الآيات فلا يقول أنا ضامن ومن يستطيع أن يكشف عن ذلك ولماذا هذه الآيات دون غيرها فهذا دليل على علمهم (سلام الله عليهم).

وفي رواية أخرى ينقلها الهيثمي عن الحسن عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (من قرأ آية الكرسي في دبر الصلاة المكتوبة كان في ذمة الله إلى الصلاة الأخرى)[٢٧] فقراءة آية الكرسي بعد الصلاة الواجبة تحفظ صاحبها وهذا يدل على استحباب

(٢٤) أخبار أصبهان: ١/ ٣١٥، الدر المنثور للسيوطي: ٣/ ٩١.
(٢٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: ٤/ ٣٥٠.
(٢٦) الماء الغالب: هو الطوفان (ينظر تاج العروس للزبيدي: ١٢/ ٣٦١).
(٢٧) مجمع الزوائد: ١٠/ ١٠٢.

قراءة آية الكرسي بعد الصلاة كمعقب من معقبات الصلاة بل من أفضلها بعد تسبيح الزهراء على ما يذكره فقهاؤنا الأعلام[٢٨].

رابعاً: الكشف عن تجلي القرآن يوم القيامة:

يأتي القرآن الكريم يوم القيامة بصورة رجلٍ حسن المظهر ويتكلم ويخاطب رب العزة والجلالة ويخاطب الناس أيضاً ففي الرواية عن الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (تعلموا القرآن فإنه يأتي صاحبه يوم القيامة في صورة شاب جميل شاحب اللون... الخ)[٢٩].

وعن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: (من نسي سورة من القرآن مثلت له في صورة حسنة ودرجة رفيعة في الجنة فإذا رآها قال: ما أنت ما أحسنك ليتك لي؟. فيقول: أما تعرفني؟. أنا سورة كذا وكذا ولو لم تنسني رفعتك إلى هذا)[٣٠].

والإمام الحسن عليه السلام يكشف عن هذا التجلي أيضاً بقوله (إن هذا القرآن يجيء يوم القيامة قائداً أو سائقاً يقود قوماً إلى الجنة أحلوا حلاله وحرموا حرامه وآمنوا بمتشابهه ويسوق قوماً إلى النار ضيعوا حدوده وأحكامه وأستحلوا محارمه)[٣١] فالإمام يكشف في هذه الرواية عن تجلي القرآن الكريم بصورته الملكوتية في تلك العوالم فيكون قائداً وسائقاً، فيتجلى العمل بآيات الله في هذه الدنيا بتلك الصورة في يوم القيامة فأما أن يتجلى العمل بقائد يقود إلى الجنة أو سائقاً يسوق إلى النار والعياذ بالله.

المبحث الثاني:

دور الإمام الحسن عليه السلام

في التأسيس لقواعد فهم القرآن الكريم:

لكي نفهم الكلام الإلهي بصورة صحيحة لابد من الرجوع إلى مجموعة من الأُسس والمنطلقات ولا يمكن لشخص خالي الوفاض أن يأتي ويفسر بدون وجود آليات وقواعد وأسس معتمدة في التفسير ولابد أن تؤخذ هذه

(٢٨) مجمع الزوائد: ١٠/ ١٠٢.
(٢٩) الكافي للكليني: ٢/ ٣٣٤.
(٣٠) المصدر السابق: ٣٣٣.
(٣١) أرشاد القلوب للديلمي: ٧٩.

القواعد من منبعها الأصلي من أهل بيت النبوة حتى نصل إلى معنى مقارب للمراد الإلهي.

وقد ذكر لنا الأئمة المعصومون عليهم السلام العديد من القواعد المهمة في تفسير القرآن الكريم ذكر معظمها محمد فاكر الميبدي في كتابه (قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة).

وهذا المجال لم يؤلَّف فيه كثيراً فنأمل أن نجد قريباً توجهها من الباحثين للكتابة فيه لنتعرف على دور أهل البيت في التأسيس لقواعد فهم القرآن الكريم ومحاكمة التفاسير في ضوء تلك القواعد فإن أكثر الذين فسروا القرآن الكريم بَعُدوا عن المراد الإلهي لأنهم لم يعتمدوا تلك القواعد في تفاسيرهم واعتمادهم على الإجتهاد والأخبار الضعيفة، ومن خلال تتبع ما ورد عن الأمام الحسن عليه السلام في هذا المجال وجدت أنه يوصل لبعض القواعد نظرياً ويؤسس لقواعد أخرى من خلال التطبيق العملي في تفسير بعض الآيات وأهم القواعد التي أسس لها الإمام الحسن عليه السلام هي:

أولا: قاعدة تفسير القرآن بالقرآن:

تعدُّ هذه القاعدة منهجاً من مناهج التفسير وهي أحد أقسام المنهج النقلي (تفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن بالرواية) وهذا المنهج من أقدم المناهج المتبعة في تفسير القرآن الكريم وقد أستحسن جميع المفسرين والمتخصصين هذه الطريقة في التفسير إلا بعض الأخباريين على ما يفهم من أدلتهم[٣٢].

وسار على هذا المنهج الكثير من المفسرين المعاصرين ومن أبرزهم عملاً بهذا المنهج العلامة الطباطبائي فنرى تطبيقات هذه القاعدة هو ما يتميز به تفسير الميزان.

وهذا المنهج صحيح لا غبار عليه وقد نصت نصوص الأئمة عليهم السلام وعلماء السلف على صحته، فقد روي عن الإمام علي عليه السلام في خطبة يصف بها القرآن: (كتاب الله تبصرون به وتنطقون، تسمعون به، ينطق بعضه

(٣٢) ينظر: دروس في المناهج والأتجاهات التفسيرية للقران، محمد علي الرضائي: ٤١، ٤٨.

ببعض ويشهد بعضه على بعض)[٣٣].

وقد عد العلماء منذ زمن طويل أن هذا المنهج من أحسن المناهج في التفسير قال ابن تيمية (فما أُجمِلَ في مكان فقد فسر في موضع آخر وما أختصر في مكان بُسط في موضع آخر)[٣٤].

وإذا رجعنا إلى روايات المعصومين عليهم السلام نجد تطبيق هذه القاعدة كثيراً في رواياتهم من خلال إرجاع المتشابهات إلى المحكمات ومن خلال الجمع بين الآيات المطلقة والمقيدة و بين العام والخاص و بين الناسخ والمنسوخ وتوضيح الآيات المجملة بواسطة الآيات المبينة.

وتعيين مصداق الآية بواسطة الآيات الأخرى، فكل ذلك يمكن أن يعد طرقاً فرعية لمنهج تفسير القرآن بالقرآن[٣٥].

ومن نماذج إستعمال قاعدة تفسير القرآن بالقرآن عند المعصومين ما روي عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عندما سُئل عن الظلم في الآية الكريمة: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [سورة الأنعام: ٨٢].

فأجاب أن المقصود بالظلم في الآية هو الشرك بدلالة قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٣٦] [سورة لقمان: ١٣]، وفي حادثه مشهورة أستنتج الإمام علي عليه السلام من خلال الجمع بين آيتين أن أقل مدة للحمل ستة أشهر وبرأ بذلك أمرأة قُذفت بالزنا[٣٧]، فمن خلال قوله تعالى ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [سورة الأحقاف: ١٥] وقوله تعالى ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [سورة لقمان: ١٤] فعندما نطرح مدة الرضاعة والتي هي أربعة وعشرون شهراً من الثلاثين شهراً (فترة الحمل والرضاعة) فتكون أقل فترة للحمل ستة أشهر.

(٣٣) نهج البلاغة بشرح محمد عبده: ٢/ ١٧.
(٣٤) مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية: ٩٣.
(٣٥) ينظر: دروس في المناهج والأتجاهات التفسيرية للقران، محمد علي الرضائي: ٦١ وما بعدها.
(٣٦) ينظر صحيح البخاري: ٤/ ١٣٧.
(٣٧) ينظر: تفسير الرازي: ٢٨/ ١٥، وينظر: تفسير الصافي: ٥/ ١٤.

والروايات في ذلك كثيرة ومما ورد عن الإمام الحسن عليه السلام في التأسيس لقاعدة تفسير القرآن بالقرآن قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا ﴾ [سورة الشورى: ٧]، قال: أم القرى مكة سميت أم القرى لأنها أول بقعه خلقها الله من الأرض لقوله تعالى ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا ﴾[٣٨] [سورة آل عمران: ٩٦]، فالإمام الحسن عليه السلام يؤسس لقاعدة تفسير القرآن بالقرآن عملياً من خلال تفسير آية بأخرى فأستدل على أن المقصود بأم القرى مكة المكرمة من خلال آية أخرى.

وروى الواحديّ في تفسير "الوسيط" ما يرفعه بسنده إنّ رجلاً سأل الإمام الحسن وهو في مسجد المدينة: أخبرني عن ﴿ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ﴾ فقال: نعم، أمّا الشّاهد فمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم وأمّا المشهود فيوم القيامة، أما سمعته يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا ﴾ وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴾[٣٩]، فالامام يبين المقصود بالشاهد والمشهود من خلال الرجوع الى القرآن الكريم.

ثانياً: قاعدة منع التفسير بالرأي:

وردت كثير من الأحاديث والتي قد تصل إلى حد التواتر[٤٠] عن النبي والأئمة عليهم السلام والتي تمنع التفسير بالرأي فعن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (من فسر القرآن برأيه فقد أفترى على الله الكذب)[٤١].

وعنه صلى الله عليه وآله: (من تكلم بالقرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ)[٤٢].

ومما ورد عن الإمام الحسن عليه السلام أنه قال: (من قال بالقرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ)[٤٣].

وعن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: (من فسر القرآن

(٣٨) تفسير القمي: ٢/ ٢٦٨.

(٣٩) بحار الانوار: ٤٣/ ٣٤٥.

(٤٠) البيان للسيد الخوئي: ٢٦٩.

(٤١) وسائل الشيعة: ٢٧/ ١٩٠.

(٤٢) تفسير الطبري: ١/ ٥٥، بحار الأنوار: ٨٩/ ١١١.

(٤٣) إرشاد القلوب: ٧٩.

برأيه، إن أصاب لم يؤجر وإن أخطأ خر أبعد من السماء)[٤٤] فبعد أن تبين شدة نهي المعصومين عليهم السلام عن التفسير بالرأي والتحذير منه فما المقصود بالتفسير بالرأي هل هو ما يقابل التفسير النقلي كالتفسير الإجتهادي أم هو أمر غيره.

وعند الرجوع الى القرآن الكريم نجد في آياته دعوه للتفكر والتدبر وإعمالاً للفكر للوصول إلى حقائق القرآن كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [سورة محمد: ٢٤].

وقوله تعالى ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [سورة ص: ٢٩].

وعليه لابد أن يكون المقصود بالتفسير بالرأي المنهي عنه غير التفسير الاجتهادي، وقد قسم العلماء التفسير بالرأي وفق ما تقدم من آيات وروايات على:

١. التفسير الجائز وهو ما يسمى بالتفسير الاجتهادي نقصد به (بذل الجهد واستخدام قوة العقل في فهم آيات القرآن ومقاصده)[٤٥] من خلال تتبع ظواهر القرآن أو حكم العقل الفطري مع موافقة القرآن والسنة ومراعاة سائر الشروط[٤٦].

٢. التفسير الممنوع: وهو الذي حذرت منه النصوص المتقدمة وليس هو ما يقابل المنهج النقلي كما يرى البعض مما دعاهم إلى رفض المنهج الاجتهادي في التفسير[٤٧]، بل المقصود بالتفسير بالرأي المحرم هو محاولة تفسير الكتاب الكريم مع جهل المفسر بقواعد اللغة وأصول الشرع وأصول التفسير الأخرى أو هو تفسير الكتاب مع الجزم بأن مراد الله تعالى هو كذا من غير برهان قطعي[٤٨].

(٤٤) وسائل الشيعة: ٢٧/ ٢٠٢.

(٤٥) دروس في المناهج والأتجاهات التفسيرية للقران، محمد علي الرضائي: ١١٣.

(٤٦) ينظر: البيان للسيد الخوئي: ٢٦٩، وينظر قواعد التفسير لدا الشيعة والسنة: ٣٥٨.

(٤٧) مقدمة جامع التفاسير: ٩٣.

(٤٨) ينظر مباحث في علوم القران، صبحي الصالح: ٢٩١.

فالروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام في النهي عن التفسير بالرأي إنما تقصد التفسير بالرأي الممنوع لا التفسير الإجتهادي وهذا ما يفهم من رواية الإمام الحسن عليه السلام أيضاً.

فالإمام الحسن عليه السلام عندما يقول: (من فسر القرآن فأصاب فقد أخطأ) إنما يشير إلى التفسير بالرأي الممنوع ليؤسس لقاعدة منع التفسير بالرأي لأن التفسير بالرأي لا يمكن أن يكشف عن المراد الإلهي لأنه محض إجتهاد غير قائم على دليل.

وللتفسير بالرأي المنهي عنه ألوان عديدة منها:

١. تفسير القرآن الكريم وفق القبليات التي يحصل عليها المفسر في مجال العقائد واللغة والأصول فإن الكثير من المفسرين يفسر بعض الآيات وخصوصاً المتشابه منها وفق الإتجاه العقائدي الذي ينتمي له المفسر مع أن ذلك يخالف القرآن نفسه ويخالف ما ثبت بالسنة الصحيحة[٤٩] أو من خلال تطبيق المصطلحات التي يحصل عليها المفسر في مجال معين كالفقه والأصول واللغة والفلسفة على القرآن الكريم.

٢. الجزم بالمراد الإلهي دون دليل فأن هناك من الألفاظ أو التراكيب ما يحتمل أكثر من معنى فإن ترجيح أحد المعاني من دون دليل وبدون الرجوع إلى القرائن العقلية أو النقلية يعد من ألوان التفسير بالرأي.

٣. التفسير وفق ظواهر اللغة مع أن اللغة لا تكشف إلا مستوى معيناً وليست هي الفيصل والمرجع الأساس في فهم القرآن فالكثير من الألفاظ المجازية لا يمكن أن تفسر وفق ظاهر اللغة لأن في ذلك تقوُّل على الله ونسبة التجسيم له كما في قوله تعالى ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [سورة الفتح: ١٠] فأن تفسيرها وفق ظواهر اللغة يعد من التفسير بالرأي.

٤. تفسير آيات الأحكام وفق الإجتهاد

(٤٩) ينظر مجلة مآب القرانية: ٢٤، القبليات= =وأثرها في التفسير -الرازي مثالاً -، د.حيدر مصطفى هجر.

الفقهي والقياس المعمول به عند مذاهب الجمهور كما يراه بعض العلماء من ألوان التفسير بالرأي[٥٠].

٥. عدم مراعاة أصول وقواعد التفسير الصحيحة فإن الكثير من المفسرين ومن كلا المدرستين وقعوا في التفسير بالرأي لعدم مراعاتهم لتلك القاعدة التي أصَّل لها أهل البيت عليهم السلام في الكثير من أحاديثهم.

فهذه الألوان من التفسير بالرأي وغيرها هو ما نهى عنها المعصوم عليه السلام.

ثالثاً: قاعدة لا يعرف القرآن إلا من خوطب به:

للقرآن الكريم مستويات من الخطاب تختلف بإختلاف مستويات الفهم عند المخاطب، ففيه: الإشارة، والعبارة، واللطائف، والحقائق، كما جاء في الرواية عن الصادق عليه السلام إنه قال: كتاب الله على أربعة أشياء العبارة والإشارة واللطائف والحقائق فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء)[٥١].

والإحاطة بتمام الحقيقة القرآنية والوصول إلى تمام المقصد الإلهي لا تكون إلا للمعصوم، لأنه كما تقدم ساير القرآن في جميع مراتبه لذا جاء في الحديث (لا يعرف القرآن إلا من خوطب به)[٥٢]، ولأن القرآن فيه مجمل وعام ومطلق ومتشابه ونسخ، فمن الذي يبين القرآن ويخصص عمومه ويقيد مطلقه ويرجح متشابهه إلى محكمه وبيان ناسخه من منسوخه؟.

فمن هنا أتت الحاجة إلى وجود القَيِّم على القرآن وهذا القيم لابد من اشتراط العصمة فيه و إلا لما قال تعالى ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾، فحقيقة الإحاطة بالقرآن لا يمكن أن ينالها غير المعصوم في الرواية عن الإمام الصادق (أنه قال للشامي: كلم هذا الغلام -يعنى هشام بن الحكم -فقال نعم فقال لهشام يا غلام سلني في إمامة

(٥٠) ينظر بحوث في علم الاصول، محمد باقر الصدر: ٤/ ٢٨٧، علوم القرآن للسيد محمد باقر الحكيم: ٣٣٦.

(٥١) تفسير الصافي: ١/ ٣١.

(٥٢) الكافي للكليني: ٨/ ٣١٢.

هذا، فغضب هشام حتى ارتعد ثم قال للشامي: يا هذا أربُّك أنْظَرُ لخلقه أم خلقه لأنفسهم؟. فقال الشامي: بل ربي انظر لخلقه، قال: ففعل بنظره لهم ماذا؟. قال، أقام لهم حجة ودليلا كيلا يتشتتوا أو يختلفوا، يتألفهم ويقيم أودهم ويخبرهم بفرض ربهم قال: فمن هو؟. قال: رسول الله ﷺ، قال هشام: فبعد رسول الله ﷺ؟. قال: الكتاب والسنة، قال هشام: فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنة في رفع الاختلاف عنا؟. قال الشامي: نعم، قال: فلم اختلفنا انا وأنت وصرت إلينا من الشام في مخالفتنا إياك؟. قال: فسكت الشامي، فقال أبو عبد الله عليه السلام للشامي: ما لك لا تتكلم؟. قال الشامي: إن قلت: لم نختلف كذبت، وإن قلت: ان الكتاب والسنة يرفعان عنا الاختلاف أبطلت، لأنهما يحتملان الوجوه وان قلت: قد اختلفنا وكل واحد منا يدعي الحق فلم ينفعنا إذن الكتاب والسنة الا ان لي عليه هذه الحجة)[٥٣]، وجاء تأسيس الأمام الحسن عليه السلام لهذه القاعدة عملياً من خلال نقله لحادثة حدثت بين عمر بن الخطاب وكعب الأحبار يبين فيها دور المعصوم في الكشف عن حقيقة آيات القرآن الكريم التي يعجز عنها غيره، ففي رواية طويلة الذيل، سأل عمر بن الخطاب كعب الأحبار عن وصي رسول الله فأجابه بأنه الأمام علي عليه السلام لأنه يعرف حقيقة آيات القرآن الكريم فأعترض عمر على ذلك، فسأله كعب عن قوله تعالى ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ فأين كانت الأرض وأين كانت السماء وأين كان جميع خلقه، فقال عمر ومن يعلم بغيب الله منا، فقال له كعب، ولكن أخاك أبا الحسن عليه السلام لو سُئل عن ذلك لشرحه...

فلما أختلف المجلس سأل كعب الأمام علي عليه السلام، فأخذ الأمام يشرح ذلك بإخبارات عن الحقيقة الغيبية التي لا يعلمها إلا المعصوم[٥٤]، والرواية طويلة ولكن الشاهد منها أن الأمام الحسن عليه السلام أراد أن يؤسس لقاعدة

(٥٣) المصدر السابق: ١/ ١٧٢.

(٥٤) تفسير فرات الكوفي: ١٨٣.

(لا يعرف القرآن إلا من خوطب به) عملياً ويبين كيف أن الحقيقة القرآنية لا يمكن أن يكشف عنها إلا المعصوم لأنه عدل القرآن ولكن هذا لا يعني أن نغلق الفهم فالفهم مستويات ولكن تمام الفهم لا يصل له إلا من خوطب بالقرآن وساير القرآن في النزول وعلم بحقيقة القرآن في تلك العوالم.

الخاتمة

أهم النتائج التي تحصل عليها البحث:

١. أن القرآن الكريم له مراتب متعددة وفي كل مرتبه يتناسب مع العالم الذي يكون فيه.

٢. المعصوم عندما يتكلم عن حقيقة القرآن الغيبية يكشف عن حقيقة واقعة لاشك فيها لأنه ساير القرآن في مراحل نزوله فهو عدل القرآن وعلم تلك الحقيقة القرآن في تلك العوالم.

٣. أسس الأمام الحسن عليه السلام لمجموعة من القواعد التفسيرية بعضها أسسها بشكل نظري والبعض الآخر من خلال تطبيقات تلك القواعد في تفسيره للآيات القرآنية.

٤. قاعدة تفسير القرآن بالقرآن من القواعد المهمة التي لها أصول تاريخية تصل الى عصر الرسول صلى الله عليه وآله.

٥. هناك فرق بين التفسير بالرأي والتفسير الإجتهادي وليس من الصحيح عد كل تفسير إجتهادي تفسيراً بالرأي كما هو عند البعض.

أهم المصادر

١. الآثار الوضعية من الكتاب والسنة، عبد الرسول ال عنوز، ط١.

٢. أرشاد القلوب، الحسن بن محمد الديلمي، ط٢، ١٤١٥، انتشارات الشريف الرضي.

٣. أسرار الصلاة، جوادي آملي، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة، ط١، ١٤١٥، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة.

٤. بحار الأنوار لجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر المجلسي (ت١١١١هـ)، ط٢، ١٩٨٣،

مؤسسة الوفاء –بيروت –لبنان.
٥. بحوث في علم الأصول، تقرير بحث السيد محمد باقر الصدر للسيد محمود الشاهرودي، ط٣، ٢٠٠٥، مؤسسة دائرة المعارف الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام.
٦. البيان في تفسير القرآن، أبو القاسم الخوئي، ط٤، ١٩٧٥م، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع– بيروت–لبنان.
٧. تاج العروس، محب الدين أبو فيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي، (ت ١٢٠٥)، تحقيق: علي شيري، ١٩٩٤م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع –بيروت.
٨. تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي (ت: ٤٦٣)، تحقيق: دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية– بيروت –لبنان.
٩. تحليل الخطاب الشعري، محمد العمري، الدار العالمية للكتاب، ط١، الدار البيضاء، ١٩٩٠م.
١٠. التفسير الصافي، محمد محسن الفيض الكاشاني (ت١٩٠١هـ)، صححه وقدم له وعلق عليه العلامة الشيخ حسين الأعلمي ط٢، ١٤١٦، الناشر: مكتبة الصدر –طهران.
١١. تفسير القمي، علي بن ابراهيم القمي (ت نحو ٣٢٩هـ)، صحيح وتعليق وتقديم: السيد طيب الموسوي الجزائري، ط٣، صفر ١٤٠٤، الناشر: مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر –قم
١٢. التفسير الكبير، فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦)، ط٣ مكتبة أهل البيت الألكترونية، أصدار٢.
١٣. تفسير فرات الكوفي، فرات بن ابراهيم الكوفي (ت ٣٥٢هـ)، تحقيق محمد كاظم، ط١.
١٤. جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تقديم: الشيخ خليل الميس/ ضبط وتوثيق

وتخريج: صدقي جميل العطار، ١٩٩٥هـ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت -لبنان.
١٥. حديث الثقلين، السيد علي الحسيني الميلاني، ط١، ١٤٣١، مركز الحقائق الإسلامية.
١٦. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت -لبنان.
١٧. دروس في المناهج والأتجاهات التفسيرية، محمد علي الرضائي، ط١، ١٤٢٦هـ، منشورات المركز العالمي للدراسات الإسلامية.
١٨. ذكر أخبار أصفهان، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الإصفهاني (ت: ٤٣٠هـ)، بريل -ليدن المحروسة ١٩٣٤م.
١٩. شرح الأسماء، الملا هادي السبزواري، منشورات مكتبة بصيرتي -قم -إيران.
٢٠. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي (ت ٢٥٦هـ)، ١٩٨١م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
٢١. علوم القرآن، محمد باقر الحكيم، مجمع الفكر الإسلامي، ط٩، ١٤٣٣هـ.
٢٢. الفردوس الأعلى، محمد حسين كاشف الغطاء، تعليق: السيد محمد علي القاضي الطباطبائي، ط٣، ١٤٠٢، مكتبة فيروز آبادي-قم.
٢٣. الفقه على المذاهب الخمسة، محمد جواد مغنية، ط١، ٢٠٠٩م، دار الغدير للطباعة والنشر.
٢٤. قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة، محمد فاكر الميبدي، ط١، ٢٠٠٧، مركز التحقيقات والدراسات العلمية التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامي.
٢٥. الكافي، محمد بن يعقوب الكليني (ت ٩٢٣ هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، ط٥، ٣٦٣١ش، دار الكتب الإسلامية-طهران .